الحديث النبوى والتربية الحديثة

لعل من المفيد أن نقدم لموضوعنا بالالماع إلى مذاهب بعض علماء النفس والتربية ، فنذكر ما قالوا فى نشأة الطفل ، واستعداده الفطرى ، وما يكون عليه حين ولادته . لعل من المفيد هذا لنرى إلى أى حد تتفق هذه الأقوال مع قول الرسول الكريم . فاذا وافق العلم الحديث المبنى على التجارب ، القائم على كثير من الاستقراء ما قال الرسول ، كان ذلك معجزة جديدة على الرسالة ، وكان دليلا على أن الدين الاسلامى هو الدين الذى يجارى العلم ولا ينافى العقل ، وأنه كفيل باسعاد الناس إذا اتبعوه ، وأنه صالح لكل زمان ومكان : لأن الزمان يكشف لنا عن أن العلوم تؤيده ، والنظريات تدعمه . وإذا كان فى القرآن الكريم أو الحديث الشريف شىء لا نفهمه ، أو لا ينطبق فى نظرنا القاصر على ما تدركه حواسنا ، عرفنا أن زمنه لم يأت بعد ، فنتركه للمستقبل ، فهو كفيل باظهار الشاهد على ما نجهل الآن .

قال علماء النفس والتربية : إن الطفل فى يد المربى كالعجينة فى يد الخباز ، إن شاء عملها رغيفاً ، وإن أراد دماها رقاقة . قالوا هذا وإن اختلفوا فيما يكون عليه الطفل فى طفولته . فبعضهم يقول : « إن الطفل يخرج إلى الحياة مزوداً بكثير من الغرائز والميول وسائر القوى العقلية المختلفة وان كان ذلك فى شكل استعدادات . والبيئة القول الفصل فيما يصير اليه أمرها » فهؤلاء يرون أن فى الطفل مجموعة غرائز وآثار وراثية تنزلت اليه من أسلافه البعيدين منهم والقريبين . وعمل المربى هو توجيه الطفل إلى الجهة النافعة مع الاعتماد على هذه الغرائز ، وجعلها المساعد القوى فى التوجيه الذى يريده . ويقول فيلسوف الاسلام الامام الغزالى : « ان قلب الصبى جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ماينقش ، ومائل الى كل ما يمال به اليه » فهذا القول نتيجة كالقول السابق ويتفق معه فى أن المربى يقتنى الطفل على ما يشاء أن ينشئه عليه . فهو قادر أن يجعل منه ملكا رحيما ، وقادر أن يجعل منه شيطاناً رجيما كما يقولون . هذا كله إلى حد محدود ، وإن كان بعيد الحدود .

وقال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . فهل هذا القول يتفق مع قول العلماء السابق ؟ أما قول الرسول : « كل مولود يولد على الفطرة » فهو متفق مع قول المربين : « إن الطفل يولد مزودا بكثير من الغرائز والميول وسائر القوى العقلية » لأن الفطرة التى يولد عليها كل مولود ما هى الا الخلقة والطبيعة التى لا بقاء للمولود بدونها ، فيمكن تفسيرها بالغرائز التى تولد مع الطفل . وهل ينقطع الطفل عن الحركة ، أو يوجد

مخلوق لا يحب البقاء لنفسه ؟ وهاتان أي الحركة وحب البقاء من الغرائز .

وأما معنى قول المربين : « والبيئة القول الفصل فيما يصير اليه أمر هذه الاستعدادات والميول » ، أو قولهم : « الطفل قابل لكل نقش وصورة ، ومائل الى كل ما يمال به اليه » فهو معنى بقية الحديث الشريف « وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » فالابوان قادران على أن يغرسا في نفس طفلهما ما شاءا أن يغرسا من العقائد والميول ، وقادران على أن يطبعاه بالصورة التي يحبان أن يكون عليها . ولا شك في أن الوالدين جزء من البيئة التي هي كل ما يحيط بالمرء ويؤثر فيه تأثيراً قليلا أو كثيراً عن طريق مباشر أو غير مباشر من يوم يكون جنيناً الى يوم يموت . فالكل يذكر البيئة ويعترف بأثرها العظيم فيما يصير اليه أمر الطفل ، يذكرها العلم الحديث القائم على التجارب ، ويذكرها الحديث الشريف المقول عفو البديهة .

ومن الأحاديث الشريفة التي تتفق مع النظريات التي تتعلق بالتربية قوله صلى الله عليه وسلم : « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » فهذا الحديث تظل الوراثة برأسها منه والوراثة هي أحد العاملين القويين فيما يكون عليه الانسان في حياته : إذ أثبت العلماء بالتجارب وبالتقصي أن الفرع يرث أصله في صفاته الخلقية والخُلُقية ، أو في كثير منها .

كذلك من الأحاديث الدالة على رفيع قدر النبي صلى الله عليه وسلم في اتباعه أمثل الطرق وأقومها في تعليمه أصحابه : ذلك الحديث « كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة كراهة السآمة علينا » فالنبي صلى الله عليه وسلم ساس أصحابه أحسن سياسة ، واتبع في تعليمهم ما إن يزال على الزمن جديداً ، وما إن ينفك عند العلماء قويما فكان يطرق الحديد وهو محمي ، وبأخذ النفوس وهي ناشطة ، ويتحين الفرص والمناسبات لالقاء حكمه ، من غير أن يطيل فيمل .

وأظن القارىء الكريم لا يحتاج الى القول بأن الوالدين الذين ذكرهما الحديث الأول ، والذين يهودان أو ينصران أو يمجسان ليس هما الوالدين حقيقة فحسب ، بل المراد بهما أيضاً المربون والقوامون على النشء . وإنما ذكر الحديث الوالدين لانهما أقرب الناس الى الطفل ، وألصقهم به ، وهما أول من تتفتح عليهما عيناه ، وأول من يقلد .

ويأتي بعد الوالدين مباشرة دور المعلم ، وبخاصة المعلم الأولى . فهو يتسلم الطفل وطاب العود ، غض الخداثة خالي الوفاض ، فارغ الجعبة إلا مما لقنه في سنيه الاولى ومما رآه في زمن الطفولة المغرية القصير . فالطفل أمانة بين يديه ، هو وديعة أمه وابيه بل هو وديعة الوطن سلمت اليه

الطفل نبت صغير إن أحسن القيام عليه نما وكبر وآتى ثمره ، كان لمربيه فضل مشكور ، وإن أهمل ذلك النبت ، أو إن كانت القوامة عليه غير صالحة ، أو إن كان غذاء روحه وعقله غذاء ضارا سيئا ، أو إن لم يراع المعلم فى عمله إلا ولا ذمة ، أو إن كان قدوة سيئة ، ومثلا رديئا لتلاميذه ؛ سابت العافية ، وضاعت آمال كانت معقودة وقلب الغرض الذى من أجله تفتح المدارس وتقام المعاهد. وليست مسئولية المدرس فى كل أدوار التعليم بأقل خطورة من مسئولية المعلم الأولى ، بل قد تفوقها . فليتق الله المربون .

وبعد ، فهذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم من ثلاثة عشر قرنا . قول ينطق به رجل أمى فى عصور الجهالة ، وقرون الظلمة . ثم لم يزل تتناقل به الحقب وتمشى به القرون ، حتى تجىء الأيام مصدقة له ، ويأتى العلم الحديث والنظريات الجديدة موافقين متحدين معه ، ويقوم العلماء يضعون قواعد للتربية فاذا هم لا يخرجون عن هذه القاعدة التى نطق بها ذلك الذى لم يجلس أمام مرب ، ولم يأخذ عن معلم سبحانك اللهم : هذا قول من لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى

حسين يوسف موسى
المدرس بمدرسة عابدين للمعلمين

من أمثال العرب فى الجاهلية والاسلام

إنّ العَصَا من العُصَيَّة ولا تلدُ الحيّة إلا حيّة (١) إن العَوَان لا تعلّمُ الخمرة (٢) إنك لتكثر الحز وتخطىء المفصل (٣) أول الشجر النواة (٤) إنك ربان فلا تعجل بشريك (٥) أرِمّاً قرونا (٦) أحشفاً وسوء كيله (٧) الحق أبلجُ والباطل لجلجُ (٨) أمكراً وأنت فى الحديد (٩) ان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى (١٠) ان البلاء موكل بالمنطق (١١) إن تردَ الماء بماء أكيس (١٢) إن غدا لناظره قريب (١٣) إن أعلاك من آساك (١٤) يصبحُ ظمآناً وفى البحر فوه (١٥)

---

(١) يضرب للشبيه بشبيه أصله (٢) العوان التى سبق لها زوج والخمرة الكيفية ليس الخمار (الخرمة) يضرب للرجل التام الأمر المجرب له (٣) يضرب لمن يجتهد فى السعى ثم لا يظفر بالمراد الحز : القطع والمفصل : ملتقى كل عظمين فى الجسد حيث يكون القطع (٤) يضرب للأمر الصغير يتولد منه الكبير (٥) يضرب لمن أشرف على إدراك بغيته فيؤمر بالرفق . (٦) الرِّمّ هو الرجل الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر لبخله والقرون الذى يقرن بين اثنين فيجدها معاً . يضرب لمن يجمع بين خصلتين مكروهتين (٧) المثل أورد الخبر والكيلة طريقة الكيل مضربه لمن يظلم من وجهين (٨) معناه أن الحق واضح بين والباطل متردد فيه حيره (٩) يضرب لمن أراد المكر وهو مذموم (١٠) المنبت المنقطع من أصحابه فى السفر بسبب إجهاده دابته . الظهر الدابة يضرب لمن يبالغ فى الشىء بافراط حتى يعجز عنه فيدعه (١١) يضرب لمكلفة تجلب الضر (١٢) يضرب فى عدم التفريط فيما يملك اتكالا على الوهوم (١٣) يضرب فى قرب المأمول (١٤) يضرب للصديق المؤنس (١٥) يضرب لمن يعاشر بخيلا متعباً